(٢٤)

التضحية

العدد (٧٧) جمادى الأولى (١٣٩١هـ) يونيو (١٩٧١م)

قالوا: إن فترة الشباب أخصب مراحل العمر، وأجدرها بحسن الافادة وعظم الإجادة!

فهي القوة الظاهرة بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة.

وقد قرر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ (الروم: ٥٤).

ومن ثم كان على المرء أن يقدم حسابا عاما عن حياته كلها، وحسابا خاصا عن طور الشباب وحده، فهو طور له خطره وأثره «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه،...».

والحق أن أمجاد المتفوقين، وأشواط الصاعدين إنما تستمد حركتها وبركتها من جهودهم أيام الشباب، واستغلالهم عرامه وإقدامه في السبق والانطلاق على أن الشباب وإن اكتنفته من طرفيه المتباعدين الطفولة والشيخوخة، إلا أنه يصعب وضع حدود زمنية لعهده السعيد! فهناك رجال تظل وقدة الشباب حارة في دمهم وإن أنافوا على الستين، لا تنطفئ لهم بشاشة، ولا يكبو لهم أمل، ولا تفتر لهم همة.!

وهناك شباب يحبون حبوا على أوائل الطريق لا ترى في عيونهم بريقا، ولا في خطاهم عزما، شاخت أفئدتهم في مقتبل العمر، وعاشوا في ربيع الحياة لا زهر ولا ثمر!

ومن الأخطاء تصور الشباب قدرة جسد، وفتاء غريزة! إن الشباب توثب

روح، واستنارة فكر، وطفرة أمل، وصلابة عزيمة.

نعم إن فترة الشباب في حياة الإنسان هي أحفل أطوار العمر بالمشاعر الحارة، والعواطف الفائرة لكنها ليست عهد العافية المكتملة في البدن الناضج فقط، بل إنها- كذلك عهد النزعات النفسية الجياشة، يمدها الخيال الخصب، والرجاء البعيد.

والأمم تستغل في شبانها هذه القوى المذخورة، وتجندها في ميادين الحرب والسلم، لتذلل بها الصعب، وتقرب البعيد.

ونجاح النهضات الكبيرة يرجع إلى مقدار ما بذل فيها من جهود الشباب وهممهم، وإلى مقدار ما ارتبط بها من آمالهم وأعمالهم.

وقد راقبنا الثورات التي اشتعلت في أرجاء الشرق ضد الغزاة المغيرين على بلاد الإسلام، فوجدنا جماهير الشباب هم الذين صلوا حرها، وحملوا عبئها، واندفعوا بحماستهم الملتهبة، وإقدامهم الرائع، يخطون مصارع الأعداء، ويرسمون لأمتهم صور التضحية والفداء!

ولا يزال الشباب من طلاب وعمال وقود المحركات الحرة، وطليعة الثائرين على الفساد والاستبداد، وقبلة المربين والمرشدين والزعماء الذين ينشدون مستقبلا أزكى لهذه الحياة.

ونحن إذ نقرر هذه الحقائق ننوه بما تنطوي عليه من دلائل الإيثار والتفاني ونرجو أن يكون حظ أمتنا من هذه الثروة الحية كفاء ما رميت به من أحداث جسام، ومافقدت من أمجاد عظام.

فلا ينتهي هذا العصر حتى نكون قد غسلنا بلادنا من أدران الاحتلال الأجنبي الذي أخزانا في ديننا ودنيانا!

بيد أن هناك رجالا تأخرت بهم السن وذهبت عنهم سورة الشباب، وتكاثرت الصلات التي تربطهم بالدنيا، ومع ذلك فإن جذوة اليقين المتقد في

قلوبهم تمسك بالشباب المولي عن جلودهم وعظامهم، وتبقيه، بل تضاعفه في قلوب تنبض بالحق وتدفعه في العروق مع الدم، فإذا أنت ترى منها بأس الحديد، وجرأة الأسود، وترى رجالا تستهويهم المغامرة، ويطيرون إلى التضحية في سبيل الله أخف من الشباب الغض..

قد يقبل الشباب على المخاطرة وسبل البذل أمامه ميسرة، فهو إن سجن لم يجزع على أسرة يعولها! وإن قتل لم تبكه امرأة أيم! ولا ولد يتيم! وخفة حمله من هذه الناحية تجعله سريع الاستجابة لنداء الواجب، أو تزيح العوائق من أمامه إذا ثارت في دمه نوازع النجدة.. أما البطولة الفارعة فهي أن يكون المرء رب أسرة كبيرة يضرب في مناكب الأرض لرعايتها، ويسير في الحياة وهو موقر بأثقالها، غير أنه - وهو الزوج المحب والأب الرحيم، والراعي المسؤول- مؤمن قبل ذلك كله بالله ورسوله، مخلص للدين الذي اعتنقه، مقدر للحقوق التي ارتبطت به.

فإذا أحس للإسلام طلبا سارع إليه ولباه بروحه، وماله، ولم تشغله أعباء الحياة التي يكدح فيها عن مطالب المثل العالية التي آمن بها.

والإنسان عندما يقرأ استشهاد عبدالله بن حرام، يرى في قصته جلالا تنحني له الجباه.. إعزازا للأبوة الرقيقة التي جادت بنفسها، واستودعت الله أسرة من غلام واحد وست بنات!

روى أبوداود والنسائي عن جابر بن عبدالله قال: «خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين يقاتلهم، وقال لي أبي: يا جابر عليك أن تكون في نظاري أهل المدينة حتى تعلم إلام يصير أمرنا، فإنى والله لولا أني أترك بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي، قال: فبينا أنا في الناظرين! جاءت عمتي بأبي وخالي، عادلتهما على ناضح! فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، إذ لحق رجل ينادي: ألا إن النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوهم في مصارعهم، فرجعنا بهما فدفناهما حيث قتلا...»

وروى البخاري عن جابر أيضا: «لما حضر أحد- يعني القتال عند الجبل وفوقه- دعاني أبي من الليل فقال لي: ما أراني إلا مقتولا في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك غير نفس رسول الله! وإن عليّ ديناً، فاقضه واستوص بأخواتك خيرا، فأصبحنا.. وكان أول قتيل».

هذا الصاحب الجليل خرج مع رسول الله ليصد هجوم المشركين على المدينة تاركا وراءه هذه الأسرة الكبيرة وقوامها كما رأيت بنات يحتجن إلى الكافل الحاني، ولم يكن أبوهن ذا بسطة في المال ينفق منه عن سعة، ويترك لعقبه من بعده ما يغني ويصون، بل كان الرجل مهموما بشؤون الرزق، ينصب فيه ويستدين، وغلام فرد إلى جوار ست بنات يكون غالبا قرة عين الوالد وموضع حبه العميق، لكن عبدالله يقسم أنه يود لو قدم ابنه ليستشهد في سبيل الله وأنه إنما يعجل بنفسه حتى يبقى الابن للبنات يخدمهن، فإن ابنه لو قتل قبله، فلن تطول بالأب الحياة.

إنه لا بد مقتول في أقرب معركة.

إن أصحاب المبادئ سراع إلى تلبية مبادئهم! عندما يقرع باب، الكريم ينهض ويقول:

فقمت ولم أجثم مكاني ولم تقم مع النفس علات البخيل الفواضح

وعندما يطلب الشجاع إلى ساحة الوغى يذهل عن الحياة وأواصره بها، وينطلق وهو يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طه: ٨٤).

وقد خرج أبو جابر إلى أحد ليلقى مصيره مع أبر شهداء الاسلام.. وروى الشيخان عن جابر قال: أصيب أبي يوم أحد فجعلت أكشف عن وجهه وأبكي! وجعلوا ينهونني، والنبي ﷺ لا ينهاني، وجعلت فاطمة بنت عمرو -رضي الله عنها- تبكيه! فقال ﷺ: تبكينه أو لا تبكينه، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه!

وروى الترمذي عن جابر قال: لقيني رسول الله مرة وأنا مهتم، فقال: ما لي أراك منكسرا؟ فقلت: استشهد أبي يوم أحد، وترك عيالا ودينا، فقال: ألا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قلت بلى، قال ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وإنه أحيا أباك فكلمه كفاحا، فقال: يا عبدي، تمن علي أعطك! قال: يارب تحييني فأقتل ثانية! فقال سبحانه وتعالى: إنه قد سبق مني أنهم لا يرجعون: فنزلت: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا...﴾ (آل عمران: ١٦٩).

والمرء يحار، أيعجب من كرامة الشهيد على الله؟ أم حلاوة الفناء في الله التي ذاقها أولئك الشهداء؟

إن أبا جابر لم يستشعر وحشة لفراق أولاده، ولم تستشرف نفسه للاطمئنان على فلذات كبده، بل تطلع للعودة إلى الدنيا كيما يذهل مرة أخرى عن أحب شيء فيها، ويتمشى بخطى ثابتة إلى ساحة القتال!

ولقد كفل الله أولاد الشهيد، وقضى عنه دينه في حديث يطول.

ولندع حديث الصدر الأول ونستأنف حديث الأشياخ المجاهدين في عصرنا هذا، إننا واجدون رجالا من طراز رائع، صنعهم الإسلام القوي فأحكم صناعتهم، وقذف بهم على جند الباطل فجددوا سير السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.. من أولئك النفر الغر عمر المختار.. البطل الذي بلغ التسعين من عمره وهو يجوب الصحراء مطاردا «الطليان» الذين أغاروا على طرابلس، وعملوا على تنصيرها بالحديد والنار، وفيه يقول شوقي:

بطل البداوة لم يكن يغزو على «تنك» ولم يك يركب الأجواء
لكن أخو خيل حمى صهواتها وأدار من أعرافها الهيجاء

وقد وقع الشيخ المهيب في أسر الأعداء، فألفوا محكمة قضت بقتله

شنقا! والمستعمرون قوم لا ينتظر منهم شرف المعاملة لا مع صديق ولا مع خصم، وقد ندد شوقي بهذا الحكم الشائن فقال:

خفيت على القاضي وفات نصيبها — من رفق جند قادة نبلاء

تسعون لو ركبت مناكب شاهق — لترجلت هضباته اعياء

ويقول:

شيخ تمالك سنه، لم ينفجر- — كالطفل- من خوف العقاب بكاء

الأسد تزأر في الحديد ولن ترى — في السجن ضرغاما بكى استخذاء

ثم يخاطب الشعب طالبا منه تجنيد الشباب وإعفاء الشيوخ فيقول:

فأرح شيوخك من تكاليف الوغى — واحمل على شبانك الأعباء

على أن منطق اليقين لا يكترث بفوارق السن، فإن العقيدة المتفجرة في القلوب الكبيرة ترد الكهول الوانين فتيانا نشيطين، أما إذا تخلخل الإيمان فإن الشاب الجلد يمسي حلس منفعة تافهة مهينة!

والدعوات العظيمة لا تضار بشيء مثل ما تضار بهذا الصنف من المتلونين المتطلعين، الصنف الذي يحاذر أن يمسه سوء ويسارع إلى إحراز الغنائم، ويشارك بجسمه أصحاب الرسالات، أما قلبه فهو بعيد بعيد.. الصنف الذي صور القرآن موقفه النابي المريب في هذه الآيات:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٢، ٧٣).

والمرء لا يصلح أن يكون رجل دعوة وصاحب رسالة إذا بنى حياته في حساب الأرباح والخسائر على هذا النحو المنكر.

ربما كان الرجل خالي البال لا يتبع أهلا ولا مالا، فهو يهز كتفيه لما تفد به الليالي من أحداث، أفإذا بلي بأثقال الفضائل ألقى بها في عرض الطريق، وأضحى لا يهدأ أو لا يهيج إلا لمنافعه الخاصة؟

كذلك فعل المنافقون قديما! فعندما ندبوا للجهاد قعدوا واعتذروا ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ...﴾ (**الفتح**: ١١، ١٢)

إنهم توهموا الخروج مغامرة مخوفة العاقبة، أو مقامرة بعيدة الربح، فنكصوا وأفئدتهم صفر من معاني اليقين والتضحية التي تجعل الشهيد يقبل على الموت، ويود لو يرد إلى الحياة ليموت مرة أخرى.

ولو كان الخروج لنفع يسير لكان لهم مع القافلة سواد كثيف!

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ ...﴾ (**الفتح**: ١٥).

وقد حذر الله المؤمنين أن تسيطر على أفكارهم هذه المآرب، أو تتدخل في نياتهم هذه المنافع:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (**المنافقون**: ٩).

فلتكن لنا من حياة المجاهدين عظة، ومن مماتهم عبرة، ومن مسلكهم مع أهليهم وأموالهم أسوة حسنة.